مجلة الرائد

العدد : ٢٠٨ الموافق في ذو الحجة ١٤١٩ هجري ٤ / ١٩٩٩ ميلادي

مدرسة فقه القلوب : جابر بن زيد	بقلم : صلاح الدين النكدلي

بزغت شمس جابر بن زيد أبي الشعثاء في سماء جيل التابعين مضيئة بالعلم الرباني ، وشهد له بأصالة الفهم وسعة المعرفة صحابة وتابعون ؛ فهذا الصحابي الجليل جابر بن عبد الله ﷺ كان يقول لأهل البصرة حين يتوجهون إليه بأسئلتهم : " كيف تسألون وفيكم أبو الشعثاء ؟! ". وحين رأى إقبال الناس على أبي الشعثاء نصحه جابر بن عبد الله فقال : " يا ابن زيد ! إنك من فقهاء البصرة ، وإنك ستُستفتى ، فلا تُفتينَّ إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت " .

وهذا لعمري هو الفقه الحقيقي ، إذ لا يصح أن يفتي العالم إلا **بقرآن ناطق**، أي بحجة واضحة بيّنة الدلالة ، أو **سنة ماضية** ، أي : صحيحة السند معلومة المعنى فإذا خالف عالم هذا المنهج كان وبالاً على الناس وعلى نفسه . وقد حفظ أبو الشعثاء هذا التوجيه الكريم ، وشهد له أهل العلم بدقة الفهم وسلامة النهج . يقول عمرو بن دينار : " ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد " ولما دفن أبو الشعثاء قال قتادة : " اليوم دُفن أعلم أهل الأرض " . وإن من دلائل علم أبي الشعثاء رحمه الله تعالى ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية عن محمد بن سيرين قال : " كان أبو الشعثاء مسلماً عند الدينار والدرهم " وقال ابن كثير معلقاً على هذه الشهادة : كما قيل :

إني رأيت فلا تظنوا غيره أن التورع عند هذا الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

والذي خبر الدنيا والناس يدرك معنى أن يكون المرء مسلماً عند الدينار والدرهم ، فالإنسان يمر بامتحانين في علاقته مع المال ؛

الأول : من أين يحصل على المال ؟ وكيف ؟

الثاني : هل يحبسه عن واجب وحاجة ؟

ومن يدقق النظر في أحوال معظم الناس يجد أن " **الطمع** " يدفعهم إلى ألوان من الحيل والخداع والمذلة ، وربما الظلم والعدوان ، من أجل الدينار والدرهم ، ويرى كثيرين يدفعهم " **الشح** " إلى منع المال عن السير في سبيل الخير ، فإذا كان المرء طماعاً شحيحاً ، لم يكن إسلامه كاملاً ، وكان المال وبالاً عليه . لذلك كان أبو الشعثاء رحمه الله تعالى يرى أن أعظم العبادات هي تلك التي يرافقها إنفاق للمال . يقول رحمه الله تعالى : " نظرت في أعمال البر فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ،

والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك " .

وللإمام جابر بن زيد رحمه الله تعالى اجتهاد ينم عن فقه عميق للإسلام ومقاصده وللواقع وحاجاته وضروراته ، ومن ذلك - على سبيل المثال - البعد عن حصر معنى العبادات في الشعائر التعبدية ، والنظر إلى حياة الناس بالاعتماد على فقه الأولويات وفقه الموازنات ، ولقد أكبرت فيه رحمه الله تعالى هذا الجانب العلمي عندما قرأت قوله : " لأنْ أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إلي من حجة بعد حجة الإسلام " . فمثل هذه الفتوى جدير بالتأمل العميق في زماننا الذي نعيش أيامه ونتحسّس آلامه ، لأن غالبية المسلمين عندهم استعداد لدفع مبالغ طائلة من المال ، مرة بعد مرة من أجل القيام بنوافل الأعمال ، مثل العمرة والحج ، بعد حجة الإسلام ، أي حجة الفريضة . والغريب العجيب أن يسفه ناس ، يظنون أنهم على شيء من العلم والغيرة ، كل من يقول : يجب على الذين ينفقون أموالهم في نوافل الأعمال ، كالحج والعمرة ، أن يرتبطوا بواقع أمتهم وأن يعيشوا همومها ، ومن علائم هذا الاهتمام أن يقدروا الحاجة إلى المال لسد ثغرات الفقر والحرمان والمرض ، التي تلج منها بسهولة جيوش المتربصين الغرباء حاملين الطعام والكساء والدواء إلى المحتاجين ، ومن خلال الخدمات والمساعدات ينشرون أفكارهم وسلوكهم وعاداتهم !! فإذا عرف المسلمون واقعهم وفق منهج الفقه الإسلامي الأصيل ، فإنهم سيسارعون إلى إنفاق المال في تحصين أمتهم ، ودعم مسيرتها التجديدية التنموية ، وسد حاجات اليتامى والفقراء والمساكين ، وسيشعرون أن هذا الإنفاق يقربهم من الله تعالى كأنهم طافوا بالبيت العتيق .

وكان أبو الشعثاء ناصحاً للمسلمين ، ومن نصيحته لهم ما قاله صالح الدهان :" كان جابر بن زيد إذا وقع في يده ستوق[1] كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم " .

رحم الله جابر بن زيد فقد كان بصره مشدوداً إلى الآخرة ، يرجو رحمة الله ويخاف العذاب ، قال الحجاج بن عيينة : " كان جابر يأتينا في مصلانا ، فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خَلِقان[2] فقال : مضى من عمري ستون سنة ، نعلاي هاتان أحب إلي مما مضى منه ، إلا أن يكون خير قدمته " . وقال الحارث بن عمير : " قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟. قال : نظرة إلى الحسن البصري ، وفي رواية عن ثابت قال : فأتيت الحسن فأخبرته ، فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ،

[1] الستوق : الدرهم المغشوش، المزور

[2] خلقان : أي باليان .

فجلس فمازال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب "

ونختم الحديث عن جوانب من حياة أبي الشعثاء رحمه الله تعالى بقوله : " إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلني أوجَه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجع من دعاك ورغب إليك " .